توحيد نجد ما عدا جبل شمَّر

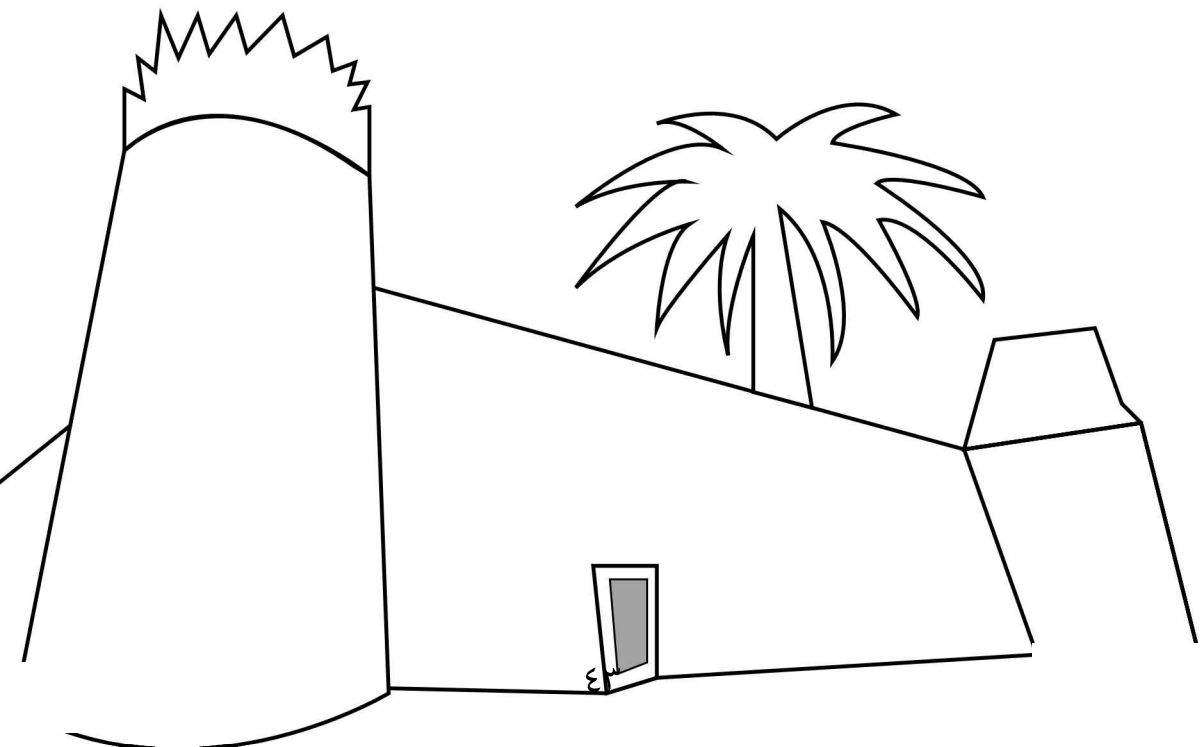

لم يَتَّبع الأمير عبدالعزيز بن رشيد، بعد انتصاره في معركة الصَّريف، سياسة حكيمة يمكن أن يكسب بها بعض القلوب المكلومة، بل اتَّبع سياسة الشِّدَّة والقُوَّة. فبالإضافة إلى تَتَبُّع فلول المنهزمين، وقتل كثير ممن عثر عليه منهم، نَكَّل بعدد من زعماء البلدان وصادر أموالهم لتضامنهم مع مبارك بن صباح وحلفائه، أو اتِّهامهم بذلك التضامن[1]. وباتِّباع تلك السياسة زاد كره أكثر النجديين له، وتَطلُّعهم إلى الخلاص من حكمه. على أن هناك من النجديين من ابتهج بانتصاره، وهزيمة مبارك الذي كان في نظرهم معتديًا من غير أبناء البلاد. ولقد مكث ابن رشيد مدة قصيرة في حائل، ثم تَوجَّه إلى الشمال الشرقي من جزيرة العرب مُؤمِّلًا، فيما يبدو، أن تتاح له الفرصة للاستيلاء على الكويت[2]. ولَعلَّه ظن أن دخول هذه البلاد في معاهدة حماية مع بريطانيا قد أثار الدولة العثمانية إلى درجة تجعلها ترمي بثقلها معه، وتساعده لتحقيق مآربه.

ولقد علم ابن رشيد باستيلاء خصمه الجديد، عبدالعزيز آل سعود، على الرياض وهو في حفر الباطن. وإذا كان لم يغب عن ذهنه خطر هذا الشاب السعودي قبل استيلائه على تلك البلدة، بدليل طلبه من العثمانيين مضايقة أنصاره، فإن هذا الاستيلاء أَكَّد له ذلك الخطر. على أن المصادر تختلف في إشارتها إلى رَدِّ فعله. فمنها ما ذكر أنه جمع كبار قومه، واستشارهم في الإجراءات التي ينبغي اتِّخاذها، وأن بعض هؤلاء قد مَلُّوا غيابهم الطويل نِسبيًّا عن أولادهم وأوطانهم وشؤونهم الخاصة. وخافوا أن يَتوجَّه بهم صوب الرياض، فيزيد غيابهم طولًا. ولذلك أشاروا عليه أن يعود إلى حائل ليبدأ بتجهيز جيش قادر على الحصار والمطاولة إن اقتضى الأمر. فاستحسن هذا الرأي، وعاد إلى قاعدة حكمه. ومكث

---

(١) الذكير، نسخة البسام، ص٢٤٢؛ الزركلي، ج١، ص١٢٠؛ العبيِّد، ص٤٢؛ ابن هذلول، ص ص ٥٦ – ٥٧.

(٢) المصدر الأخير نفسه، ص٥٧؛ الزركلي، ج١، ص١٢٠.

هناك عدة شهور قبل أن يخرج لمنازلة عبدالعزيز بن عبدالرحمن[1]. ومن تلك المصادر ما أشار إلى أنه أظهر عدم مبالاة في الأمر، وظَلَّ في الحفر أربعة شهور بتَصرَّف تَصرُّف من يرى أن قضية الكويت أصل، وقضية الرياض فرع، وأنه لا بد من التعامل مع الأصل أولًا لا مع الفرع. ثم مضى بعد ذلك إلى حائل[2]. وسواء كان هذا أو ذاك، فإن ابن رشيد لم يَتَّخذ الإجراء المناسب في الوقت المناسب. وهذا ما أتاح الفرصة للملك عبدالعزيز أن يُقوِّي دفاعاته عن الرياض، ويستعد للبدء في بسط حكمه على بلدان نجد الأخرى، وتوحيدها تحت رايته.

١- توحيد جنوبي نجد:

بعد أن اطمأن الملك عبدالعزيز إلى سلامة وضعه في الرياض عزم على التَّحرُّك خارجها. وكان أمامه ميدانان للحركة: الجهات الواقعة جنوب هذه البلدة، والجهات الواقعة شمالها أو غربها. وكان يعلم أن له ولأسرته أنصارًا كثيرين هنا وهناك. لكنه فَضَّل أن يبدأ حركته بالجهات الجنوبية لأسباب مُتعدِّدة؛ منها أنها أبعد جغرافيًّا عن قاعدة حكم ابن رشيد. ولذلك فإن اتِّجاهه إليها أَقلُّ إثارة لخمصه القَويِّ حينذاك من اتِّجاهه إلى جهات أقرب إلى قاعدة ذلك الحكم. ومنها أن قُوَّة الحكم الرشيدي في الجهات البعيدة نِسبيًّا عن حائل أَقلُّ من القريبة منها. وهذا مما يُشجِّع سكان تلك الجهات على الانضمام تحت راية الحاكم الجديد. وبالإضافة إلى ذلك فإن معظم قادة جنوبي نجد وأهاليه كانت لهم مواقف مشهودة ضد القوات العثمانية، أو المُتحرِّكين باسمها[3]،

---

(١) القاضي، ص٩، الذكير، نسخة البسام، ص٢٤٨.

(٢) الريحاني، ص١٢٧؛ ابن هذلول، ص٦٢.

يبدو أن ابن رشيد أظهر للناس عدم اكتراثه بما حدث في الرياض تظاهرًا بالقوَّة. لكن من المرجَّح أنه عاد إلى حائل ليفكر بتؤدة فيما يجب عمله، وليستعد استعدادًا قويًّا.

(٣) من أمثلة تلك المواقف صمودهم أمام قوات محمد علي التي كانت بقيادة إسماعيل بك وخالد بن سعود.

وكانت بلدانهم مأوى لكثير من الذين لم يريدوا الخضوع لها؛ خاصة من آل سعود وآل الشيخ[1]. واعتقد الملك عبدالعزيز- وهو مصيب في هذا الاعتقاد- أنه إذا تَمكَّن من كسب ولاء سكان الجهات الجنوبية من نجد استطاع أن يَتحرَّك إلى الجهات الشمالية والغربية، وظهره أكثر أمانًا. ولقد وجد من سكان جنوبي نجد، بصفة عامة، ما تَوقَّعه من استجابة له وتعاون معه. ودخلت تحت حكمه الخرج والأفلاج والحريق وحوطة بني تميم، وأصبح نفوذه يمتد من الرياض إلى وادي الدواسر[2].

٢- المجابهة مع ابن رشيد في الدِّلَم:

بعد النجاح الذي حَقَّقه الملك عبدالعزيز في جنوبي نجد، مع نهاية عام ١٣١٩هـ وبداية العام الذي تلاه، بدأ التَّحرُّك باتِّجاه غرب الرياض؛ خاصة صوب عالية نجد. لكن ذلك التَّحرُّك كان مُوجَّهًا ضد فئات من البادية لا ضد البلدان والقرى. وكان النصر حليفه وحليف من بعثه نائبًا عنه[3].

وربما كان من أسباب التوجه صوب عالية نجد بُعْد تلك المنطقة النِّسْبي عن مركز حكم ابن رشيد، حائل، ولَعلَّ توجيه الحركة نحو البادية أن مهاجمتها لا تثير ابن رشيد كما تثيره مهاجمة البلدان التابعة له. ذلك أن ارتباط القبائل الرُّحل به؛ خاصة التي لم تكن في منطقة جبل شَمَّر أو قريبة منه، لم يكن قَويًّا كارتباط الحاضرة. وبالإضافة إلى ذلك فإن نجاح غزو الملك عبدالعزيز للبادية ينتج عنه حصوله على غنائم كان هو في أمَسِّ الحاجة إليها. وكان مما قام به

---

(١) من ذلك اتجاه الإمام تركي إليها مع سقوط الدرعية، وذهاب أفراد من أسرته وآل الشيخ إليها في تلك المرحلة العصيبة.

(٢) الزركلي، ج١، ص ص ١٢٥ - ١٢٦؛ ابن هذلول، ص٦٢.

(٣) الذكير، نسخة البسام، ص٢٥١؛ ابن هذلول، ص٦٢.

في تلك الشهور أن بعث أخاه محمدًا إلى الكويت ليصحب والدهما عبدالرحمن من هناك إلى الرياض[١]. وبعودة ذلك الوالد إلى هذه البلدة اجتمع شمل الأسرة في مقر الحكم السعودي.

أما الأمير عبدالعزيز بن رشيد فقد خرج من حائل في شهر ربيع الأول، سنة ١٣٢٠هـ، ومعه قواته من حاضرة جبل شَمَّر وباديته. واستنفر أتباعه في القصيم والوَشْم وسُدَير والمِحْمل والشعيب. فوصل بالجميع إلى رغبة، إحدى بلدان المِحْمل. وبقي هناك شهرين، ثم انتقل إلى الحِسي[٢]. وقد نزل بجيشه خلال ذلك وباء توفيت بسببه أعداد غير قليلة[٣]. وكان قد حَلَّ ببعض البلدان النجدية وباء في ذلك العام[٤]. وفي أثناء إقامة ابن رشيد تلك وَجَّه بادية قحطان للنزول قرب بلدة ضرما[٥]، وأرسل إلى هناك، أيضًا سالم بن سَبْهان، ومعه غزو أهل القصيم[٦]. وأمر سعدًا الحازمي أن يستنهض القبائل المجاورة للأحساء. لكن الحازمي فشل في مسعاه، لأن الملك عبدالعزيز كان قد بعث أخاه محمدًا وعبدالله بن جلوي إلى تلك القبائل، فَتَمكَّنا من استقطابها[٧]. ومن الواضح أن من بين أهداف هذه الإجراءات الرشيدية محاولة تطويق الرياض من شمالها الغربي وجنوبها الشرقي. على أن ابن رشيد لم يَتحرَّك من الحِسي لمهاجمة هذه البلدة؛ بل انتقل إلى الحفر. ولَعلَّه أراد بهذا الانتقال التمويه، ليقوم بعد ذلك بهجوم أَشدَّ مفاجأة.

---

(١) المصدر الأول نفسه، الصفحة ذاتها.

(٢) القاضي، ص٩؛ الذكير، نسخة البسام، ص٢٥١؛ عبدالرحمن بن ناصر، **عنوان السعد والمجد فيما استظرف من أخبار الحجاز ونجد**، صورة من مخطوطة لدى المؤلف، ج١، ص٤٤.

(٣) المصدر الأخير نفسه، ج١، ص٤٥؛ الذكير، نسخة البسام، ص ص ٢٥١ - ٢٥٢.

(٤) ابن عيسى، **تاريخ بعض الحوادث**، ص٢٠٢؛ البسام، ورقة ١٦٨أ.

(٥) الريحاني، ص١٢٩؛ ابن ناصر، ص٤٤. الذكير، نسخة البسام، ص٢٥٢.

(٦) القاضي، ص٩؛ البسام، ورقة ١٦٩أ.

(٧) الريحاني، ص ص ١٢٩ - ١٣٠؛ الذكير، نسخة البسام، ص٢٥٢.

ولقد خَطَّط الملك عبدالعزيز لاستدراج خصمه ابن رشيد إلى مواجهة عسكرية مباشرة على ساحة تناسبه. فخرج من الرياض بعد أن ترك فيها جيشًا قادرًا على الدفاع عنها بقيادة أبيه. وتَوجَّه إلى حوطة بني تميم يستنهض أهلها، وبعث أخاه سعدًا إلى الحَرِيق يستنجد بسكانها. وجعل عبدالله ابن جلوي يرابط بقوات بين هاتين البلدتين. وكانت له سَريَّة في الدِّلم بقيادة السديري[1]. ولما علم ابن رشيد بخروج الملك عبدالعزيز من الرياض سار بقواته مسرعًا حتى وصل إلى ضواحيها ظانًّا- كما تقول بعض الروايات[2]-: إن خلافًا وقع بين الملك وأبيه، مما سيُسهِّل عليه الاستيلاء على هذه البلدة. لكنه أدرك عند اقترابه منها أن ظَنَّه لم يكن صحيحًا. فَتَوجَّه إلى إقليم الخرج بقواته التي تقرب من أربعة آلاف مقاتل لمنازلة الملك عبدالعزيز والقضاء على قُوَّته. ووصل إلى بلدة نَعْجان، ثم أخذ يغير على الدِّلَم محاولًا الاستيلاء عليها. وفي أثناء ذلك وصل الملك عبدالعزيز بقواته القريبة من الألفين إلى هذه البلدة، ودخلها دون أن يعلم به خصمه. ولما أغارت قوات هذا الخصم- كعادتها- عليها فوجئت بمقاومة أدركت أنها تُؤكِّد وصول عبدالعزيز إليها. وتَمكَّن المدافعون من الصمود، وإنزال بعض الخسائر بالمهاجمين، فاضطر ابن رشيد إلى الانسحاب من الدِّلَم إلى مركزه في نَعْجان. ثم سار الملك عبدالعزيز بقواته في إثره، ووقعت بينهما اشتباكات غير حاسمة، لكنها أظهرت لابن رشيد أن خصمه قادر على مجابهته وإنزال الضرر به. فانسحب من الإقليم ليلًا، بعد أن ترك نيران معسكره موقدة للتمويه في تغطية الانسحاب[3]. وهكذا كانت المواجهة الأولى، في الدِّلَم وما حولها، بين ابن

(١) يذكر أنه أحمد السديري كلٌّ من الريحاني، ص١٣٠ والذكير، نسخة البسام، ص٢٥٢. ويقول: إنه محمد السديري كلٌّ من البسام، ورقة ١٦٩أ وابن هذلول، ص٦٣ وابن ناصر، ج١، ص٤٥.

(٢) الزركلي، ج١، ص١٣٤.

(٣) انظر تفصيلات تلك الحوادث مع بعض الاختلاف في الروايات كُلًّا من الريحاني، ص ص ١٣١ - ١٣٢؛ القاضي، ص٩؛ الزركلي، ج١، ص ص ١٣٥ - ١٣٧؛ ابن هذلول، ص ص ٦٣ - ٦٤.

سعود وابن رشيد نصرًا للأول؛ قَلَّت خسائر الثاني أو كثرت. وقد حدثت في ربيع الأول عام ١٣٢٠هـ/يونيو ١٩٠٢م.

٣- توحيد الوشم وسدير والمحمل والشعيب:

بعد انسحاب ابن رشيد من إقليم الخرج وصل إلى أطراف بُرَيدة. ثم تَوجَّه إلى شمالي الجزيرة العربية، حيث هاجم فئات من قبائل مختلفة قبل أن يَتَّخذ من حفر الباطن مركزًا له مرة أخرى[١]. وأحس مبارك بن صباح بالحاجة إلى من يساعده في الدفاع عن إمارته، فاستنجد بالملك عبدالعزيز، الذي هَبَّ لنجدته ومعه آلاف من المحاربين. ولما وصل إلى الكويت وجد حاكمها قد أَعدَّ جيشًا كبيرًا بقيادة ابنه جابر. وانطلق الجميع صوب حفر الباطن لمهاجمة خصمهم الأكبر. لكن الأخبار وافتهم بأنه ارتحل من هناك إلى حائل. فغَيَّروا خُطَّتهم، وهاجموا فئات من قبيلة مطير في جَوِّ لَبَن، وغنموا منها إبلًا وغنمًا كثيرة، ثم عادوا إلى الكويت[٢]. على أنه اتَّضح أن ابن رشيد لم يذهب إلى عاصمة حكمه؛ بل تَوجَّه إلى الرياض. ومن الواضح أنه فعل ذلك منتهزًا فرصة ذهاب الملك عبدالعزيز مع أتباعه الكثيرين إلى الكويت، ومُؤمِّلًا أنه سيفاجئ الرياض ويستولي عليها. لكن قادة هذه البلدة علموا باقترابه منها، فاستعدوا للدفاع عنها. وانتهت غارته عليها بتقطيعه بعض النخيل الواقعة خارج أسوارها[٣].

وكانت انتصارات الملك عبدالعزيز في الرياض وما يليها جنوبًا من الأمور التي شَجَّعت المُؤيِّدين للحكم السعودي في البلدان الواقعة شمالها على التَّحرُّك ضد الحكم الرشيدي، كما كانت مما هَيَّا الملك لبدء العمل في توحيد هذه

(١) الذكير، نسخة البسام، ص٢٥٣؛ ابن هذلول؛ ص٦٤.

(٢) الريحاني، ص١٣٣.

(٣) المصدر نفسه، ص١٣٤؛ ابن هذلول، ص٦٥.

البلدان الشمالية. وكان في طليعة المُؤيِّدين المشار إليهم سابقًا أهل شقراء الذين زاد تَصرُّف أمير ابن رشيد، عبدالله الصويغ، لديهم تصميمهم على التَّخلُّص منه. فثاروا عليه وأخرجوه من بلدتهم، حيث وصل، فيما بعد، إلى ثرمداء[١]. وبعثوا إلى الرياض يعلنون ولاءهم، ويطلبون سَريَّة تقف معهم ضد أَيِّ هجوم محتمل[٢]. فتوجهت إليهم سَريَّة بقيادة مساعد بن سويلم. ولما وصل إلى هناك قام بمهاجمة ثرمداء. وتَمكَّن من دخولها، وقَتْل الصويغ، والقبض على أميرها مشاري العنقري، الذي أُرسِل إلى الرياض، حيث بقي سجينًا حتى وفاته[٣]. ويقال: إن دخول ابن سويلم إلى ثَرْمداء كان بممالأة من بعض أهلها[٤]. على أنه انسحب منها إلى شقراء حذرًا من هجوم ابن رشيد عليه فيها.

ونتيجة لما حدث في الوَشْم قام الأمير عبدالعزيز بن رشيد بالإغارة على بعض الفئات القبلية هنا وهناك إظهارًا لقُوَّته. ثم تَوجَّه إلى شقراء، وحاول استمالة أهلها، لكنهم لم يستجيبوا له، فحاول إخضاعهم بالقُوَّة، فلم يَتمكَّن من دخول بلدتهم. فما كان منه إلا أن عَزَّز دفاعات ثرمداء، وجعل فيها حامية بقيادة حمد بن عسكر. ثم تقهقر إلى بُرَيدة[٥]. وما كان من الملك عبدالعزيز إلا أن خرج من الرياض، وتوجه إلى شقراء حيث بعث من هناك سَريَّة إلى ثرمداء بقيادة عبدالله بن جلوي. وتَمكَّن عبدالله من دخول هذه البلدة، وبدأ يحاصر

---

(١) القاضي، ص١٠؛ الذكير، نسخة البسام، ص٢٥٦.

(٢) المصدر الأخير نفسه، ص٢٥٧؛ القاضي، ص١٠.

(٣) ابن هذلول؛ ص ص ٦٥ – ٦٦، على أنه يذكر أن الصويغ هرب. لكن كلًّا من القاضي (ص١٠) والذكير (نسخة البسام ص٢٥٧) والريحاني (ص١٣٥) والبسام (ورقة ١٧٠أ) يذكرون مقتل الصويّغ. وكانت وفاة العنقري في سجنه عام ١٣٢٢هـ. المصدر الأخير نفسه، الصفحة ذاتها.

(٤) الذكير، نسخة البسام، ص٢٥٧؛ العبيِّد، ص١٢٤.

(٥) القاضي، ص١٠؛ الذكير، نسخة البسام، ص٢٥٧، البسام، ورقة ١٧٠ أ و ب؛ ابن ناصر، ج١، ص٤٧.

القصر الذي كانت فيه حاوية ابن رشيد. لكن أفراد تلك الحامية فتحوا ثغرة في أحد جدران القصر، وهربوا[1].

وكان مما قام به الملك عبدالعزيز وهو في شقراء أن بعث سَريَّة، بقيادة أحمد السديري، إلى روضة سُدَير لمهاجمة حامية ابن رشيد فيها، فنجحت في إخراج تلك الحامية منها[2]. ودخلت بقية بلدان سُدَير تحت الحكم السعودي سوى المَجْمَعة، التي بقيت خارج هذا الحكم إلى ما بعد مقتل الأمير عبدالعزيز بن رشيد بقليل.

ولما اطمأن الملك عبدالعزيز إلى استتباب الأمور له في الوَشْم وسُدَير، بصفة عامة، رجع إلى الرياض في ربيع الأول عام ١٣٢١هـ[3]. وكان إقليما الشعيب والمِحْمل قد دخلا، أيضًا في طاعته دون مقاومة تذكر. وبذلك يَتَّضح أن ميول سكان تلك الأقاليم النجدية الأربعة كانت معه، وأن أعماله العسكرية فيها كانت مُوجَّهة أساسًا ضد الحاميات الرشيدية الموجودة فيها.

٤- توحيد القصيم:

لكل إقليم من أقاليم نجد أَهَمِّيته الخاصة وتاريخه الحافل بالأحداث. من ذلك أن إقليم العارض -مثلًا- اشتهر بجودة زراعته، وكونه مهد دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الإصلاحية، ومركز حكم آل سعود الذين ناصروا تلك الدعوة، وأقاموا دولة وحَّدت كثيرًا من مناطق جزيرة العرب؛ خاصة إبَّان عهد الدولة السعودية الأولى. وظَلَّ مركز الحكم السعودي ومنطلقه لتوحيد الأقاليم والمناطق الأخرى من البلاد.

---

(١) القاضي، ص١٠؛ الذكير، نسخة البسام، ص٢٥٩؛ البسام، ورقة ١٧٠ ب.

(٢) الريحاني، ص١٣٥؛ ابن هذلول، ص٦٦.

(٣) القاضي، ص١٠.

ولإقليم القصيم أَهمِّيته من عدة جوانب. فمساحته واسعة، ومياهه غزيرة، وأراضيه زراعية، وسكانه كثيرون نِسْبيًّا ونشيطون زراعيًّا وتجاريًّا. وقد امتدَّ نشاطهم التجاري إلى الحجاز ومناطق الخليج العربي. بل امتدَّ أيضًا إلى أقطار خارج الجزيرة العربية كالعراق والشام وفلسطين ومصر والهند. وكان لموقعه أَهميَّة كبيرة في تاريخ الدولتين السعوديتين الأولى والثانية. فقد كان منطلق القوات السعودية لتوحيد ما يقع شماله من أقاليم جزيرة العرب. واستمرت تلك الأَهميَّة في الدولة السعودية الثالثة، كما سَيتَّضح فيما بعد.

وكان إقليم القصيم البَوَّابة الرئيسة التي حاولت قوات حاكم مصر العثماني، محمد علي باشا، أن تدخل منها للقضاء على الدولة السعودية الأولى. وقد أدرك الإمام عبدالله بن سعود خطورة تلك المحاولة، فبادر بالذهاب إلى ذلك الإقليم آملًا أن يحول دون وقوعه في أيدي قوات الحاكم المذكور. ونجح في التَّوصُّل إلى صلح مع طوسون بن محمد علي انسحب بموجبه هذا الأخير من القصيم. لكن الإمام عبدالله لم ينجح فيما بعد، في رَدِّ إبراهيم باشا، الذي واصل زحفه حتى قضى على حكم ذلك الإمام.

وظَلَّ إقليم القصيم البَوَّابة الرئيسة إلى قاعدة الحكم في نجد بعد زوال الدولة السعودية الأولى. فكان ممرَّ قوات محمد علي باشا، التي حاولت القضاء على نشاط آل سعود المُتَّخذين من الدِّرْعيَّة، ثم من الرياض، مركزًا لهم. وقد أدرك الإمام فيصل بن تركي، كما أدرك أسلافه، أَهميَّة ذلك الإقليم، فسارع للحيلولة دون أن تسيطر عليه القوات التي قدمت إلى نجد بقيادة خالد بن سعود وإسماعيل بك. وكانت سيطرة تلك القوات عليه من أكبر العوامل التي أفقدت ذلك الإمام الأمل في المقاومة مرحليًّا على الأقل. ولما عاد من مصر عام ١٢٥٩هـ، ووصل إلى حائل كان إقليم القصيم أول الأقاليم النجدية التي حرص على

وقوفها معه لاستعادة حكم البلاد عامة. ثم جاءت هزيمة أهل هذا الإقليم أمام الأمير محمد بن رشيد في المُليداء، سنة ١٣٠٨هـ، لتكون أكبر عامل في توطيد حكم ذلك الأمير في نجد، وأعظم سبب في خروج الإمام عبدالرحمن بن فيصل من الرياض فاقدًا كثيرًا من الأمل في نجاح الوقوف أمام المَدِّ الرشيدي. وهكذا كان إقليم القصيم دائمًا أرض المعارك الدائرة بين حكام نجد من آل سعود وخصومهم الزاحفين ضدهم من الحجاز أو جبل شَمَّر.

وعندما بدأ الملك عبدالعزيز مسيرته التوحيدية للبلاد كانت مئات من أهل القصيم في العراق والشام وفلسطين ومصر. وقد تَغرَّب هؤلاء عن بلدانهم عملًا في التجارة[١]. أو خوفًا مما آلت إليه أوضاعها السياسية، أو كرهًا للعيش تحت حكم آل رشيد. وبالإضافة إلى أولئك المواطنين العاديين كان يوجد في الكويت أكابر أسرتي الإمارة في بُرَيدة وعُنَيزة: آل مُهنَّا وآل سُلَيِّم[٢]، الذين فَرُّوا من نجد خوفًا من بطش آل رشيد بهم. وإذا كان هؤلاء الأكابر وعشرات من مُؤيِّديهم يتوقون إلى انتهاز أَيِّ فرصة للعودة إلى بلادهم وتَسلُّم مقاليد الأمور فيها، فإن قصيدة محمد العَوْني المُسمَّاة الخَلُوج[٣]، التي استنهض بها أهل القصيم الموجودين في الأقطار المشار إليها سابقًا، قد أثارت حَميَّة كثير من هؤلاء وشَجَّعتهم على التَّوجُّه إلى نجد لانتزاع بلدانهم من حكم ابن رشيد[٤].

---

(١) يقال عن هؤلاء: العُقَيلات، أو عُقَيل. ويقال عن الذي ذهب إلى تلك الأقطار: غرَّب، أو ذهب إلى الغربية.

(٢) ذهب أكابر آل سُلَيِّم إلى الكويت بعد معركة المليداء. أما أكابر آل مهنا فكانوا مسجونين في حائل بعد تلك المعركة، لكنهم تمكَّنوا من الهروب من سجنهم إلى الكويت سنة ١٣١٧هـ.

(٣) الخَلُوج: الناقة التي تحنّ إلى ولدها المفقود.

(٤) مطلع هذه القصيدة:

خلوج تجدّ القلب باتلي عوالها　　تكسَّر بعبرات تحطّم سلالها

وهي منشورة في كثير من كتب الشعر النبطي، ومنها ديوان النبط، الذي نشره خالد الفرج، القاهرة، دون ذكر لسنة الطباعة، ج٢، ص ص ٢٨٣ - ٢٨٧.

ولقد أدرك كُلٌّ من الملك عبدالعزيز والأمير عبدالعزيز بن رشيد أن القصيم سيكون ميدان الصراع الحاسم بينهما. فسعى الأول إلى انتزاعه من حكم الثاني بكل الوسائل، وسعى الثاني إلى الاحتفاظ به بكافة الطرق. وكان من الوسائل التي رآها الملك عبدالعزيز مُهمَّة في تحقيق هدفه هناك أن بعث إلى زعماء أسرتي آل مُهنَّا وآل سُلَيم في الكويت يَحثُّهم على التَّوجُّه إليه ليعملوا جميعًا لتخليص القصيم من حكم ابن رشيد[1]. ولم يكن شيء أَحبَّ إلى نفوس هؤلاء الزعماء من أن يَتحرَّكوا للعودة إلى إمارة بلديهم. فتَوَّجهوا مع من انضمَّ إليهم من مُؤيِّديهم مسرعين، ولحقوا بالملك عبدالعزيز الذي كان حينذاك في طريقه صوب ذلك الإقليم[2]. وقد وصل الجميع إلى الزُّلْفي في أول رمضان سنة ١٣٢١هـ[3]. وكانت تلك السنة سنة قحط، كما كانت إبل الجيش الذي مع الملك عبدالعزيز وخيله قليلة جدًّا، بحيث كان هذا سببًا من أسباب عدم مواصلة سيره نحو القصيم، وعودته إلى الرياض[4]. على أن ذلك الأمر -مع أَهميَّته الكبيرة- لم يكن أَهمَّ مما ذكره أحد المؤرخين المَحلِّيين المعاصرين لتلك الأحداث؛ وهو أن الملك عبدالعزيز كتب إلى كبار أهل عُنَيزة من الزُّلفي يخبرهم أنه على وشك التَّوجُّه من هناك إليهم، فما مدى تعاونهم معه؟ فَردَّ عليه أولئك -ربما خضوعًا للظروف المحيطة بهم، ومن بينها وجود ابن رشيد على مقربة منهم- بأن في رقابنا بيعة لابن رشيد. وها هو موجود في القصيم. فإن قضيت عليه فنحن معك[5]. وعلى أيِّ حال فإن الملك عبدالعزيز اقتنع بأن مواصلة السير

(١) القاضي، ص١١؛ البسام، ورقة ١٧١أ.

(٢) الريحاني، ص١٣٦؛ ابن هذلول، ص٦٧.

(٣) القاضي، ص١١.

(٤) الريحاني، ص١٣٧؛ ابن هذلول، ص٦٧.

(٥) القاضي، ص١١.

نحو القصيم غير مناسبة حينذاك، فعاد إلى الرياض. وتَوجَّه آل مُهنَّا وآل سُلَيِّم إلى شقراء[1].

أما الأمير عبدالعزيز بن رشيد فإنه بعد فقده أقاليم نجد الواقعة جنوب القصيم، قد أقام في بُرَيدة يُرتِّب أمور هذا الإقليم ويُعزِّز دفاعاته ضدَّ خطر أَيِّ هجوم محتمل. ومما يلفت النظر أنه حاول كسب رضا السكان المَحلِّيين بإظهار المَوَّدة لهم، ومشاورتهم في الإجراءات التي ينبغي اتِّخاذها. ولقد استقر رأيه في نهاية الأمر على أن يُعزِّز السَّريَّة التي في بُرَيدة بقيادة عبدالرحمن بن ضَبْعان، وأن يبعث بسريَّة إلى عُنَيزة قوامها خمسون رجلًا بقيادة فهيد بن سَبْهان، ويرسل سَريَّة مُكوَّنة من أربع مئة مقاتل بقيادة حسين بن جراد لترابط في إقليم السِّر الواقع على حدود القصيم الجنوبية، ويبعث سَريَّة عددها يقرب من عدد التي قبلها بقيادة ماجد الحمود بن رشيد لترابط قرب عُنَيزة[2]. ولما اطمأن نوعًا ما إلى ترتيباته في القصيم؛ إضافة إلى عودة خصمه، الملك عبدالعزيز، إلى الرياض، تَوجَّه إلى حدود العراق في العاشر من شوال. وكان هدفه من التَّوجه إلى هناك أن يَتزوَّد هو وأتباعه بما يحتاجون إليه من طعام، ويستنهض من في ذلك القطر من قبيلة شَمَّر، ويستنجد العثمانيين لإمداده بالقوات والمؤن والأموال[3].

وكان من نتائج مغادرة ابن رشيد للقصيم أن ازداد حماس الملك عبدالعزيز وأتباعه من آل مُهنَّا وآل سُلَيِّم كي يَتوجَّهَوا إلى ذلك الإقليم[4]. فتَوجَّه على رأس قواته إلى هناك. فلما تجاوز الوَشْم وافته الأخبار بنزول حسين بن جراد ومن

(١) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

(٢) القاضي، ص١١، الريحاني، ص١٣٧؛ البسام، ورقة ١٧١أ. وتختلف المصادر في عدد أفراد السرايا. لكن اختلافها ليس مهمًّا لأن زيادة العدد، أو نقصه، قليلًا لن يؤثِّر في سير الأحداث.

(٣) القاضي، ص١١؛ الريحاني، ص١٣٧.

(٤) يذكر القاضي أن آل مهنَّا وآل سُلَيِّم كان لهم تأثير بالغ في تشجيع الملك عبدالعزيز على الحركة.

معه فيضة السِّر. فَشنَّ هجومًا مباغتًا عليهم، وقُتِل ابن جراد نفسه، كما قُتِل عدد ليس قليلًا من أفراد سريَّته[1]، وغُنِم ما كان معهم من إبل وأموال. وذلك في الثامن والعشرين من ذي القعدة سنة ١٣٢١هـ[2]. ومع أن هذا كان كسبًا كبيرًا للملك عبدالعزيز فإنه أدرك أن ذلك الحادث قد أصبح نذيرًا لقوات ابن رشيد والمتعاونين معها في القصيم مما سيفقده عنصر المفاجأة، ويجعلهم على أُهبة الاستعداد لصَدِّه. ولذلك عاد إلى الرياض، وعاد آل مُهنَّا وآل سُلَيِّم إلى شقراء[3].

وكان ماجد الحمود بن رشيد قد راوده الخوف بعد أن علم بما حصل لحسين بن جراد ومن معه. فانتقل إلى مكان قريب من سور عُنَيزة[4]؛ محاولة منه لتقليل خطر هجوم مباغت ضدَّه من ناحية، ورغبة منه في دعم السَّريَّة الموجودة في تلك البلدة من ناحية أخرى.

وفي العشر الأواخر من ذي الحجة، عام ١٣٢١هـ، خرج الملك عبدالعزيز من الرياض مستنهضًا أتباعه للغزو. وانضمَّ إليه - وهو في الوشم - آل مُهنَّا وآل سُلَيِّم ومُؤيِّدوهم. وقد أظهر أنه يريد التَّوجه إلى أطراف الكويت؛ وذلك للتمويه على خصومه. ثم غَيَّر اتِّجَاهه مسرعًا نحو القصيم. وما إن حَلَّت ليلة الخامس من شهر المُحرَّم، سنة ١٣٢٢هـ، حتى كان قد وصل بقواته إلى الحميدية التي تبعد عن عُنَيزة ثلاث ساعات بسير الإبل. ثم اقترب من هذه البلدة، فنزل خارج أسوارها الجنوبية. وأمر آل سُلَيِّم وآل مُهنَّا وبعض أتباعهما أن يدخلوا

(١) يقدِّر القاضي (ص١٢) عدد المقتولين بمئة وعشرين رجلًا. وهذا أقرب إلى الصحة. أما قول ابن هذلول (ص٦٨)؛ «فقتله - يعني ابن جراد - وجميع من معه عن بكرة أبيهم» فإن فيه مبالغة واضحة.

(٢) القاضي، ص١٢؛ الذكير، نسخة البسام، ص٢٦٢.

(٣) القاضي، ص١٢.

(٤) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

عُنَيزة ليستولوا عليها. فدخلوها دون صعوبة، وكمنوا لرئيس السَّريَّة الرشيدية فيها، فهيد بن سَبْهان، فَتمكَّنوا من قتله، وأخذوا يحاصرون قصر الإمارة الذي تَحصَّنت فيه تلك السَّريَّة[1]. وفي صباح اليوم التالي أرسل إليهم الملك عبدالعزيز الأمير عبدالله بن جلوي مع مئة من الرجال[2]. وكانت نتيجة ذلك الحصار أن هرب عدد ممن كانوا داخل القصر، واستسلم الباقون بأمان[3].

وبذلك تَمَّت السيطرة على مقاليد الأمور في عُنَيزة مع إطلالة اليوم الخامس من المُحرَّم. وكان أمير هذه البلدة من قِبَل ابن رشيد، صالح اليحيى، قد خرج إلى ماجد الحمود بن رشيد يَحثُّه على التَّحرُّك إلى داخل البلدة. لكن ماجدًا اقتنع بأن عدم مقاومة أهلها، بصفة عامة، لمن دخلها مع أتباع الملك عبدالعزيز دليل واضح على تضامنهم مع هذا الملك، وأنه لا فائدة من محاولة تغيير ما حدث. فأمر أتباعه بالرحيل. لكنهم ما إن بدأوا بالتَّحرُّك حتى فاجأهم الملك عبدالعزيز وأتباعه بالهجوم. وقُتِل ممن كانوا مع ماجد حوالي خمسين رجلًا بينهم أخوه عُبَيد. وهرب الباقون؛ بعضهم إلى بُرَيدة، وبعضهم إلى حائل[4].

---

(١) المصدر نفسه، ص١٣؛ البسام، ورقة ١٧٢ب، الذكير، نسخة البسام، ص٢٦٥.

(٢) وردت الإشارة إلى ذلك في رسالة بعثها الملك عبدالعزيز إلى مبارك بن صباح. وتؤكد تلك الرسالة أن ابن جلوي لم يكن مع من دخلوا البلدة ليلًا وقتلوا ابن سَبْهان. انظر عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم، **أمراء وغزاة**..، لندن، ١٩٩١م، ص١٨٣. وقد يكون من أهداف إرسال ابن جلوي إلى داخل البلدة، أيضًا، مساعدة من دخلوها ليلًا ضد ما يمكن أن يحاوله ماجد الحمود من دخول إليها قبل أن يهاجمه الملك خارجها. على أنه لا صحة لما ذكره الريحاني (ص١٣٨) من أن أهل عنيزة (هكذا) استسلموا لما سمعوا بابن جلوي. ذلك أن أهل هذه البلدة كانوا، بصفة عامة، متضامنين مع أمرائهم القدامى من آل سُلَيِّم، ولم يقاوموهم؛ بل انضموا إليهم. ويمكن أن يقال: إن من أشار إلى استسلامهم هم بعض رجال حامية ابن رشيد.

(٣) القاضي، ص١٣؛ الذكير، نسخة البسام، ص٢٦٥؛ البسام، ورقة ١٧٢ب.

(٤) القاضي، ص١٣؛ البسام، ورقة ١٧٢ب.

وهكذا عادت إمارة عُنَيزة إلى آل سُلَيِّم تحت حكم الملك عبدالعزيز، وأصبح أميرها عبدالعزيز بن عبدالله، وإلى جانبه صالح الزامل قائدًا لغزوها[1].

ولقد شَجَّع ما حدث في عُنَيزة كبار أهل بُرَيدة على إيضاح موقفهم المؤيِّد للملك عبدالعزيز. فبعد يومين من دخوله عُنَيزة قدم إليه وفد منهم يبدون وقوفهم معه. فَسيَّر آل مُهنَّا إليها، واستقبلهم أهلها بحماسة[2]. ثم تَوجَّه إليها هو بقواته، فبايعه سكانها، وبدأ يحاصر عبدالرحمن بن ضَبْعان، الذي تَحصَّن مع رجال حاميته بقصرها المنيع. وقد دام ذلك الحصار حوالي شهرين ونصف الشهر. ولما نفد ما كان لدى المحاصرين من أطعمة، وأصبح شبح الموت جوعًا يُهدِّدهم، اضطر قائدهم إلى التفاوض مع الملك عبدالعزيز بشأن إنهاء الحصار. وتَوصَّل معه إلى اتِّفاق يُسلِّم بموجبه القصر إلى الملك، ويخرج المحاصرون منه بأسلحتهم الشخصية آمنين على أرواحهم، وتُؤمَّن لهم ركائب تنقلهم إلى بلادهم[3]. وقد وفى الملك بما اتَّفق عليه مع ابن ضَبْعان على أحسن وجه. ومع أن ذلك الاتِّفاق يبدو، في بعض جوانبه، كسبًا لقائد الحامية الرشيدية، التي كانت مُهدَّدة بالموت جوعًا، فإنه كان نجاحًا واضحًا للملك عبدالعزيز. ذلك أنه كان حريصًا على سرعة خروج تلك الحامية من بُرَيدة لئلا يصل ابن رشيد إلى أطرافها وهي لا تزال داخلها فينشغل بملاقاته عنها. وهكذا عادت إمارة بُرَيدة إلى آل مُهنَّا تحت حكم الملك عبدالعزيز، وأصبح صالح الحسن المُهنَّا أميرًا لها. وبدخول عُنَيزة وبُرَيدة تحت الحكم السعودي يمكن القول: بأن إقليم القصيم كله أصبح واقعيًّا تحت هذا الحكم.

*****

(١) عبدالعزيز هو عبدالعزيز بن عبدالله بن يحيى بن سُلَيِّم. وصالح هو صالح بن زامل -الأمير المشهور- ابن عبدالله بن سُلَيِّم.

(٢) القاضي، ص١٣.

(٣) ابن هذلول، ص٦٩.